مـــركـــز ريـــادة
RIYADAH CENTER

الوقف وعمارة المسجد

كيف ساهم الوقف في بناء المساجد؟

1447هـ - 2025م

الذراع المعرفي والتمكيني
للهيئـة العامـة للأوقـاف

AWQAFRIYADAH | riyadahawqaf.futurex.sa

يصدر مركز ريادة الذراع المعرفي والتمكيني للهيئة العامة للأوقاف

سلسلة نشرات معرفية، امتدادًا لموضوعات ومحاور سلسة اللقاءات المعرفية التي يعقدها المركز لعام 1446 هـ - 2025 م، والتي تهدف لرفع الوعي المعرفي المتخصص بالأوقاف، حيث إن الوقف منذ عصور مديدة يعد جامعًا للعديد من الأفكار التي تتعلق بالواقف والمجتمع، ولا ينحصر دور الوقف على جانب معين، بل يتسع دوره حتى ظهر أثره في نواحٍ مختلفة تجعل الباحث عنها، والمنقب عن تفاصيلها في دهشة جليّة. فتناولت اللقاءات المتنوعة في عنوانيها، والمتفقة في فكرتها، النظر للوقف الإسلامي من زوايا مختلفة وأبعاد متعددة، لإظهار الجوانب الاجتماعية والفكرية والحضارية للوقف، بدءًا من عالم الأفكار، وصولًا إلى المكتبات والوثائق الوقفية، وتمحيصًا في أثر الوقف في عمارة المسجد حتى أصبح مركز إشعاع حضاري، وصولًا إلى علم الفلك وتأثير الحركة الوقفية في نشأته وتطوره. **وسنلحظ في هذه النشرات، أن الوقف عبر العصور، وفي مختلف العلوم والمجالات، كان عاملًا حضاريًا فارقًا، على صعيد المعرفة والأمكنة، والأزمنة، ولا تزال هذه الآثار تتضاعف وتقدم لنا نموذجًا فارقًا للتنمية المجتمعية والاقتصادية.**

الفهرس

المقدمة 3

الوقف والمسجد: من قلب العمران إلى مركز الحضارة 4

ملامح العمارة الوقفية ودورها في حفظ مكانة المساجد وجمالها 8

تجليات روح الوقف في الزخارف والمآذن والمحاريب 12

المقدمة

الوقف ركيزة من ركائز الحضارة الإسلامية، به شُيِّدت المساجد وزَها عمرانها على مرّ العصور، وحين اختار المسلمون حبس الأموال وتوجيه ريعها لأعمال البر، أمَّنوا للمسجد مورداً دائماً يُعين على البناء والصيانة والخدمة، وبهذا تجاوز المسجد حدّ الصلاة، فأضحى مدرسةً للعلم، ومجمعاً للمجتمع، يَمدّه بما يحتاج إليه في دينه ودنياه.

ومع امتداد العالم الإسلامي، تمايزت التجارب الوقفية باختلاف الأقاليم، في الغرب برزت أوقاف الأندلس، وفي الجنوب أشرقت تجربة الهند المغولية، وفي الوسط ازدهرت أوقاف الجزيرة العربية، هذه البيئات تتباين في تاريخها وفنونها، إلا أنّها تجتمع على تعظيم المسجد والارتفاع به مظهراً للهوية الجمالية الإسلامية.

يعرض هذا التقرير هذه التجارب ويحلّل أبعادها التربوية والاجتماعية والعمرانية والسياسية، ندرس كيف صنع الوقف من المسجد نقطة انطلاق للبناء، ونقف على السمات المعمارية التي حَفِظت للمساجد بهاءها، ونلمح أثر الوقف في الزخارف والمآذن والمحاريب، ثم نقف على دور الخط والفنون الإسلامية في ترسيخ الهوية الجمالية لتلك المساجد.

الوقف والمسجد: من قلب العمران إلى مركز الحضارة

ظلَّ المسجد نواة التخطيط في المدينة الإسلامية، تدور حوله الأحياء وتتشعّب الشوارع، ويصدح فيه الأذان إيذاناً ببداية النهار، ولم يكن هذا الموقع المحوري ليتكرّس لولا نظام الوقف؛ إذ وفَّر للمسجد موارد ثابتة، فجعل منه قاطرةً للعمران ومولدًا للحركة العلمية والاجتماعية.

التجربة الأندلسية

في الأندلس برز هذا المعنى حين اختار عبد الرحمن الداخل قرطبة عاصمةً، بادر سنة 785م بتشييد جامعها، ورصد له خُمس الغنائم وقفاً دائماً.

وعلى امتداد القرون، توالت توسعات الجامع بتمويل الخلفاء وأهل البر؛ حتى غدا من آيات الفن الإسلامي سَعةً وبهجة؛ ولأن المال الموقوف أمانة، وقف الخليفة الحكم المستنصر بعد توسعة 976م يشهد أمام القاضي ووجهاء المدينة أن النفقات خرجت من مال طيّب، صوناً لثقة الناس بالوقف ورغبةً في البركة.

هذا الدعم الدائم جعل المسجد قلب العمران المدني والعلمي معاً ،فقد قامت قصور الحكم إلى جواره، وتفرعت من ساحته الطرق، وما لبث أن تحلّقت حوله الأسواق والمكتبات والدكاكين، كثيرٌ منها موقوفٌ لخدمته أو يستثمر ريعه لصالحه، ثم غدا الجامع جامعةً مفتوحة، تضم عشرات الحِلَق والزوايا، تدرس فيها علوم الدين واللغة والفلك والطب، فقد ذكر مؤرخو ذلك العصر أنّه ضم نحو سبعٍ وعشرين مدرسة داخل أروقته، تخرّج فيها طلاب من المغرب والمشرق وأطراف أوروبا، وكلها قائمة على أوقاف تتعدّد مصادرها؛ من أمراء، وعلماء، وسيدات تبرّعن بأموالٍ وكتب.

هكذا تحوّل جامع قرطبة بفضل الوقف إلى منارة تُضاء فيها العقول، وتنتظم حولها البيوت والأسواق والحدائق، ولم يعد المسجد تابعاً للعمران، بل صار هو الذي يرسم للمدينة ملامحها ويغذيها بحياةٍ لا تنقطع.

وعلى الصعيد الاجتماعي، نرى الوقف ينسج حول المسجد شبكة رحمةٍ تظلّل الجميع، فقد قامت في رحاب جامع قرطبة مقصورةٌ لدار الصدقة تُوزَّع فيها الزكاة وأموال البر، وأخرى تأوي عابر السبيل والفقير إقامةً مؤقتة؛ وجعلت لها أوقافٌ عقارية تدرُّ دخلاً يضمن دوام تلك الخدمة.

وتدفّق خير الوقف إلى الساحات عبر سُبُل الماء التي تُروِي عطش المارّة، وإلى الأرْبِطة التي تستقبل الزائرين والعباد على مقربةٍ من الجوامع، وساهمت نساء الأندلس في هذا الفيض، فوقفن الأموال والمكتبات على المساجد ومدارسها، فاشتدَّ بهنّ بنيان التكافل، وهكذا استحال المسجد الأندلسي بفضل الوقف محور المدينة: يرفع منارات العبادة، ويُفْتح فيه أبواب العلم، ويُبْسَط في رحابه ظلّ الرعاية، وتلتفّ حوله الأسواق والمرافق فتتجدّد به حياة العمران.

الجوهر النجدي: مسجد الطين وظلُّ السوق

يظهر بريقه ما إن تخطو إلى «مسجد البُجيري» في الدرعية حتى تُبصر صورةَ مصغَّرةَ للمجتمع النجديّ: حِوانيتُ الطحين ومحلات اللبن تلتصق بأروقة الطين، ورائحةُ القهوة تتسرَّب من دَكَكِ العطارين إلى صحن المسجد، هنا يتجلّى الوقف في أصفى معانيه؛ فقد جُعلت المحلاتُ المطِلَّة على الرواق وقفًا يَدِرُّ ريعه على عمارة بيت الله، فيدور اقتصادُ الحيِّ كله حول منارةٍ طينيةٍ تُشير إلى السماء، إنَّ هذا التشابك بين العبادة والمعاش يفسِّر تشبُّث النجديين بمساجدهم؛ فهي حارسةُ الروحِ وحاضنةُ السوق معًا.

حوَّل البنَّاء النجديُّ ظروفه المناخية إلى مزيةٍ جمالية: العقودُ المدبَّبة الطينية تمنح الظلَّ وتلقي هواءً بارداً في الحرِّ، والجدرانُ الغليظة تُخزِّن برودةَ الليل لتُطلقها نهارًا، بينما تظلُّ المئذنةُ المخروطية علامةَ طريقٍ يراها العابر من بعيد؛ فتقوده، ويطمئنُّ به، هكذا يحقِّق المسجدُ النجديُّ معادلةَ «السكينة والتنمية»: يحفظ هوية المكان بطينه وقصبه، ويضخُّ في شرايينه حركةَ البيع والشراء، ليُثبت أنّ الوقف ليس مجرّد ريعٍ ماليّ، بل شبكةٌ اجتماعيةٌ وروحيةٌ تدور كالعين في رأس المدينة.

التجربة المغولية في الهند

في الهند المغولية، اتخذ أباطرة الأسرة التيمورية من المسجد الجامع رمزاً للحكم الإسلامي وركناً لخدمة المسلمين، فكل حاضرة كبرى حظيت بمسجد فخم يتصدر عمرانها، ويقع في موضع ينظر إليه الناس من كل جانب؛ قريباً من القلعة، أو في قلب السوق، أو في أعلى النقاط المشرفة.

شاه جهان، الذي عرف بحبه للعمارة، أوقف أراضي زراعية ودوراً تجارية حين رفع جامع دلهي، فتدفق ريعها إلى سدنة المسجد ومصروفاته، وبقي المسجد وقفاً مصوناً تديره مجالس الأوقاف حتى اليوم.

وعلى الرغم من أنّ المساجد المغولية لم تُنشئ كليات ضخمة إلا أنها ضمّت أروقةً للتدريس، وألحق بها المصلحون مدارس وكتاتيب، يموّلها ريع العقارات الموقوفة. مثلا بنى الوزير نصير خان مسجد وزير خان في لاهور، وأقام أمامه سوقاً تجارية تصبّ أرباحها في صندوق المسجد والمدرسة.

هذا النسق المعماري بعث في مدن المغول هويةً واضحة؛ مسجد جامع تحفّه ساحة رحبة وأسواق نشيطة. جامع شاه جهان في دلهي، بقبابه الرخامية ومآذنه الشاهقة وساحته التي تتسع لعشرات الألوف، جسد قلب المدينة النابض؛ يؤمّه المصلّون، ويقصده التجار والزائرون في المواسم والأعياد. وظلّ جامع دلهي، ومعه جامع لاهور البادشاهي، مركزين روحيين واجتماعيين للمسلمين، ترعاهما أوقاف أهلية تجري بخيرها إلى اليوم.

وبهذا الأسلوب أسهم الوقف في الهند المغولية في تثبيت المسجد في صدارة العمران، وربط العبادة بالعلم والتجارة والرعاية، فبقي صوت الأذان ودويّ حلقات الدرس ونداء السوق يتعانق في قلب المدينة.

ملامح العمارة الوقفية ودورها في حفظ مكانة المساجد وجمالها

المساجد التي شيّدها الواقفون ورعوها تزيّنت بخِصالٍ معمارية وفنيّة ضمنت لها البقاء والبهاء، إذ قصد الواقف أن يجعل صدقته جارية تخلُد في الأجيال، لذا عني المسلمون بتزيين بيوت الله وعمارتها أروع عناية، واختاروا خير المواد وأتقن الأساليب لتسمو مكانتها وتطول مدّتها، ولعلّ الهند أَوْضحُ مثالٍ على التحام أسلوبٍ محليّ بفكرة المسجد العالمية؛ إذ حوَّل المسلمون أعمدةَ هندوسيةَ قديمة، وجعلوا منها دعائم للقباب، ثم رفعوا فوق الأبواب أقواسًا مدبَّبةً تُغني عن الأُطر الخشبية الثقيلة، ومع الزمن سَرَت هذه العادة، فانبثق طرازٌ إسلاميٌّ جديدٌ لا يُخطئه البصر، وإن ظلّ يحمل نَفَسَ الأرض التي وُلِد فيها.

أكثرُ ما يلفتُ النظر، أنّ هذا التنوُّع لم يَصْدِم «وحدة الشكل الإسلامي»؛ إذ بقيت القبلةُ محورَ التكوين، وبقيت القبابُ رمزَ العروج، من فارسَ إلى مصر، يتبدَّل الحجرُ أو الآجرُّ، وتتوحّد الفكرة: رفعُ سقف العبادة إلى السماء.

إنّ المدينةَ الإسلامية تُدرك أنّ العمارة «سيّدة الفنون»؛ تُزاوج بين وظيفةِ العبادةِ وجمالِ المشهد، فتغدو القبةُ والأروقةُ والمشربياتُ لوحةً متصلةً تُدخل السرور على قلب المصلّي، وتُربّي الذائقةَ في أحياءِ الفقراء قبل قصورِ الأغنياء، وهكذا تُثبت المساجد -مهما اختلفت موادُّها وألوانُها- أنّ الوقف أداةٌ لإشاعة الجمال العام.

الأندلس: عراقة أمويّة ولمسات مغربية

عمارة الأندلس جمعت أصالة الشام وابتكار الغرب الإسلامي؛ فانفردت بهيئةٍ تَوالت القرون وهي تَستقي منها الفنّ والإلهام.

جامع قرطبة مثالٌ ساطع: تحفته أقواسٌ مزدوجة، طبقةٌ سفلى حمراء وبيضاء بشكل حدوة حصان، وفوقها أنصاف دوائر ترفع السقف عالياً وتجري العيون في سعة القاعة بطمأنينة، في ذلك البناء جمعت العناية المزدوجة بين الحُسن والاتزان فأمّنت ثباته على مدى الدهور، ثم انتقلت هذه السمة إلى مساجد المغرب في عهد المرابطين والموحّدين، فظل الطابع الأندلسي يتردّد صداه في ربوع الغرب الإسلامي. عَمِل الوقف في الأندلس على انتقاء أجود الخامات؛ فالأعمدة رخامٌ صقيل جُلب من الآثار أو استورد من وراء البحار، والسقوف تُزيَّن بنقوش دقيقة، وتُكسى الجدران بالجصّ والزجاج الملوّن، هذه المواد الجليلة صانت المسجد قروناً طوالاً، إذ كان ريع الوقف يُسرَع به إلى كل موضعٍ مسَّه التلف، فيجد الترميم والدهان.

ومع اتساع الحاجة وسع الخلفاء المسجد وأحدثوه أربع مرات بين القرنين الثامن والعاشر، فجاءت التوسيعات من مالٍ موقوفٍ رُصد لهذه الغاية حتى بلغت مساحته نحو ثلاثة وعشرين ألف مترٍ مربع تتسع لثمانين ألف مصلٍّ، **ومع كل إضافةٍ بقي الجامع متّسق النَّسَق، واحد الروح، لأن المعماريين المموَّلين من ريع الوقف التزموا خطّ الأقواس والقباب والألوان، فكأنك أمام تحفةٍ صيغت في لحظةٍ واحدة، وإن اختلفت العصور.**

ومن سمات تلك العمارة الوقفية ما نراه في العقود الأندلسية من حِلْيةٍ ثنائية اللون؛ فالحجر الأبيض والآجرُّ الأحمر يتعاقبان في قوسٍ واحدٍ هذا النسق، المأخوذ عن الجامع الأموي بدمشق، صار عَلَماً على بناء الأمويين في الغرب.

وبحسٍّ جمالي رقيق، فُتِحَ أمام بيت الصلاة صحنٌ غُرِسَت فيه أشجار النارنج والليمون؛ تزرع الخطى في ظلاله، وتفوح من أزهاره رائحةٌ تعبق بها الأروقة، ولما أدرك الواقفون قيمة هذه الباحة، أوقف بعضهم بساتين يسقون منها الصحن ويجدّدون شجره كلما نضب أو هرِم.

هذه العناصر مجتمعةً صيّرت المسجد الأندلسي تحفةً لا ينفد جمالها؛ فانعكست أنواره على مساجد المغرب. وفي القرن الثاني عشر، بدا أثر قرطبة جليّاً في جامعَي تلمسان والجزائر؛ عقودٌ مفصصة، وأروقةٌ تتقاطع كأنها خيوط نسيجٍ واحد، فكان في ذلك امتدادٌ لروح الوقف الأندلسي التي رفعت مقام المسجد وحفِظت له بريقه عبر العصور.

في الهند المغولية: فخامة الرخام وتناسق التصميم

تكشف المساجد التي وقفها أباطرة المغول عن ذروة البذخ المعماري الذي بلغته دولة الهند يومئذ، حيث جمع البنَّاء فيها بين إرث فارس والهند وصبَّه في قالب إسلامي فريد.

أول ما يطالع العين كثرة الرخام الأبيض والحجر الأحمر؛ فيبدو الجامع مهيبًا، قد ازدانت جدرانه بلونين متباينين يلفتان البصر، هكذا شُيّد جامع أكبر في فاتح بور سكري بالحجر الرملي الأحمر، بينما تزيّن جامع شاه جهان في لاهور وجامع دلهي بطبقات واسعة من الرخام الناصع.

- **طوّر المعماريون تخطيطًا يلائم ذوق المغول:**

  باحة فسيحة تتوسطها نافورة، تحيط بها أروقة، يتقدَّمها بيتُ صلاة من ثلاث وحدات: جناح أيمن، وجناح أيسر، وقسم أوسط تعلوه قبة واسعة تشكّل محور التكوين. تظهر هذه السمة واضحة في جامع دلهي بثلاث قباب بصلية ضخمة تتصدّر المشهد، تحف بها قباب أصغر على الجانبين، فيصنع ذلك تناغمًا بصريًّا يخفّف من ثِقَل الكتلة.

- **واعتمد الصُّنّاع على زخارف دقيقة موّلها الوقف:**

  عقود مفصصة، وأشرطة كتابية، ونقوش نباتية محفورة في الحجر، كما في مسجد فتحبوري ومسجد الجمعة في دلهي. وجمّلوا القباب والجدران بالتطعيم بأحجار كريمة ملوَّنة، شأن مسجد تاج محل.

- **وهكذا أسهم الوقف في إرساء هذه الخصائص:**

  مواد مختارة باقية، تصميم يوازن الضخامة والتفصيل، وزخارف تحافظ على بريقها، فجاءت المساجد المغولية آيات من الجمال تحفظ ذكر الواقفين، وتؤكد رسالة الوقف: إبقاء بيوت الله عامرة حسًّا ومعنى.

تجليات روح الوقف في الزخارف والمآذن والمحاريب

الخط العربي في مساجد السعودية: صبغةُ المعنى

ليس الخطُّ العربيُّ نَقشًا زخرفيًّا فحسب، بل هو «روحٌ مقروءة» تنقل العقيدةَ من كتب التفسير إلى رحاب الجدران؛ فيبقى المصلي مُحاطًا بكلماتٍ تُذكّره بأن «لا غالبَ إلا الله»، يُوحّد الخطُّ وجدانَ الأمّة، فيربط الخطباءَ بكتبة المصاحف، ويربط الحرفَ بالمنبر؛ حتى صار المسجدُ في التجربة السعودية لوحةً تُطرِّزها الآياتُ فوق المحاريب وتعالِقها في أروقة الجامعات والمساجد الكبرى.

لقد نبّه الباحثون إلى أنّ «الهندسة الخطية» لا تكتفي بالزينة، بل تضبط إيقاع الفراغ؛ فحركةُ الكُوفِيّ المستقيم توجِّه البصرَ نحو المحراب، وحلاوةُ الثُّلُثِ المنحني تروِّضُ صمتَ المصلّى، بينما تُشيع مفرداتُ الديواني ليونةً تستوعب ازدحام الحشود في المواسم، بذلك يتحول الخطُّ إلى «مِسطرةٍ معنوية» تضبط النِّسَب بين الضوء والظل، وترسم حدود الحركة في الصحن.

ومع يقظة مشاريع الترميم في المملكة اليوم، عاد الخطُّ العربيُّ ليؤدّي وظيفةَ «الهوية الآمنة»؛ إذ يجمع بين مقتضيات السلامة الهندسية ومتطلبات الذوق المعاصر، في مسجدَيِ الملك فهد والملك خالد بالرياض، مثلًا، نرى الحرفَ يُنفَّذ بمواد مقاومة للعوامل الجوية، دون أن يفقد رشاقته أو دلالته الشرعية، وهكذا يُبرهن الوقفُ على أنّ استدامة الجمال لا تقلُّ شأنًا عن استدامة الموارد، وأنّ **طراز المسجد السعودي قادرٌ على استقبال الحداثة دون أن يتخلّى عن تراث الحرف العربيّ.**

الزخارف تشع بالحياة

ما كانت الزخارفُ وملحقاتُ المساجدِ زخرفًا جامدًا، بل نَفَسًا مُؤمنًا يحمل رسالةَ البرّ والإحسان، الواقفُ حين يُوقِفُ، يبتغي صدقةً جاريةً تدوم، فيُجمل بيتَ الله بأحسن ما يجد، فإذا جمالُ البناء عنده قُربة، لا مباهاة. في **عتبات المساجد تُسطَّر لوحاتُ التأسيس**، يُذكَر فيها اسمُ الواقف، ويُرفع له الدعاءُ، فيتعلّم الداخلُ أنّ الجمالَ صناعةُ مُحسنين يرجون وجهَ الله. وتزدان جدرانُ القبلة بآياتٍ من كتاب الله، كآية ﴿إِنَّما يَعمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَن آمَنَ باللهِ﴾، تذكيرًا بأنّ عمارة المسجد أثرُ إيمانٍ وصدقٍ.

أمّا **المحرابُ**، فهو تاجُ المسجد، وموضعُ العين. هنالك يجودُ الواقفُ بأغلى ما يملك: رُخامٌ مُحكَّم، وفسيفساءُ ذهبية، ونقوشٌ تُذهل البصَر وتعطفُه إلى الخشوع.

و**المئذنةُ** –صوتُ التوحيد العالي– إذا ارتفعت عاليةً مزخرفةً، دلَّت على عظمة الوقف وسخاء صاحبه، ثم إنّ الواقفين حَرِصوا على نَقْش نصوصِ أوقافهم في أحجار المساجد، فجاءت اللوحاتُ الرخاميةُ تحمل شروطَ الوقف ودعاءً للواقف.

وهكذا تجلّت روحُ الوقف في كلّ تفصيلٍ جماليٍّ: من طول المئذنة إلى رِقّة المحراب، من دقّة النقش إلى روعة اللون، فما كان ذلك ترفًا، بل بيانٌ حيٌّ على دوام الصدقة، وشاهدٌ باقٍ على إخلاص أهل البرّ عبر العصور.

المراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية:

- موشموش، محمد. أثر عمارة مسجد قرطبة على المساجد المرابطية بالمغرب الأوسط (القرن 5-6هـ). الجزائر: منشور أكاديمي.
- موسى، عبد الله كامل. عمارة المساجد المبكرة منذ ما قبل الهجرة النبوية حتى نهاية عصر الخلفاء. الرياض: دار المريخ للنشر، 1995م.
- توامة، نعناعة. عمارة المساجد العثمانية في بايلك الغرب بين استمرار الطرز المحلية والتأثيرات الخارجية. الجزائر: جامعة الجزائر، 2010م.
- مالدونادو، باسيليو بابون. سلسلة عمارة المساجد في الأندلس. مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، 2000م.
- بابون مالدونادو، باسيليو. عمارة المساجد في الأندلس: قرطبة ومساجدها. أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2011م.
- المشهداني، ياسر عبد الجواد. عمارة المساجد في الهند خلال العصر المغولي. دمشق: دار الفكر، 2012م.
- مارشال ج. س. هودجسون، مغامرة الإسلام: الضمير والتاريخ في حضارة عالمية، ترجمة أسامة غاوجي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2021م.
- النويصر، محمد بن عبد الله. خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية: منطقة نجد، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1999 م.
- القحطاني، هاني محمد. العمارة والناس: واقع وآفاق التنمية العمرانية في المملكة العربية السعودية، دار الكفاح، الدمام، 1429هـ